تجارب الأمم و فلسفة التدوين التاريخي لدى مسكويه

يوسف الهادى*

چكيده

نويسنده در اين نوشتار ضمن اشاره به چاپهاى متعدد كتاب تجارب الأُمم به مزيّتهاى چاپ اخير پرداخته، سپس تفاوتهاى اثر ياد شده با ديگر آثار تاريخى مشابه و شيوهٔ تاريخ‌نگارى مسكويه را به اجمال تبيين كرده است.

منذ العام ١٩٠٩ و حتى ١٩٢٦ م تواصل نشر بعض أجزاء كتاب تجارب الأمم للفيلسوف و المؤرخ أبى على مسكويه (٣٢٠ ـ ٤٢١ هـ / ٩٣٢ ـ ١٠٣٠ م) على أيدى جمع من المستشرقين أمثال ليونه كايتانى الإيطالى و آمدروز الإنجليزى ـ و مارغليوث الإنجليزى أيضاً. لكن النسخة الكاملة لأجزاء الكتاب جميعها ظلت محجوبة إلى أن توفر على تحقيقها الدكتور أبوالقاسم إمامى الاستاذ بجامعة طهران فأصدرها مع ذيولها فى ثمانية أجزاء خصص الأخير منها للفهارس. و إذا كان إصدار بعض أجزاء الكتاب فيما مضى قد اعتمد على مخطوطة واحدة هى المحفوظة بمكتبة أياصوفيا بتركيا، فإنّ طبعة الدكتور إمامى ـ فضلاً عن كونها قد شملت طبع أجزاء الكتاب كلها مع ذيوله ـ اعتمدت على مخطوطات أُخرىٰ محفوظة فى شتّى المكتبات لكنها اتخذت أيضاً مخطوطة مكتبة أياصوفيا أصلاً لأنّها المخطوطة الوحيدة الكاملة الشاملة للأجزاء جميعها. و الكتاب بطبعته الحالية يتضمن:

١ ـ كتاب تجارب الأمم لأبى على مسكويه و هو يغطى وقائع السنوات من (٢٩٥ ـ ٣٦٥ هـ / ٩٠٧ ـ ٩٧٩ م).

---

*. پژوهشگر و مصحح متون تاريخى.

٢ ـ ذيل تجارب الأمم للوزير البويهي العالم و الأديب محمد بن الحسين، أبي شجاع الروذراوري (٤٣٧ ـ ٤٨٨ هـ / ١٠٤٥ ـ ١٠٩٥ م)، بدأ بتاريخه من حيث انتهى مسكويه في سنة ٣٧٠ هـ / ٩٨٠ م و ختمه بوقائع العالم ٣٨٩ هـ / ٩٩٨ م.

٣ ـ قطعة من تاريخ هلال بن المحسن الصابي (٣٥٩ ـ ٤٤٨ هـ / ٩٦٩ ـ ١٠٥٦ م) الذى ولي ديوان الانشاء ببغداد و المؤرخ الشهير، و قد وضعه ذيلاً لتاريخ خاله المؤرخ و الطبيب ثابت بن سنان المتوفى سنة ٣٦٥ هـ / ٩٧٥ م و القطعة الباقية من هذا التاريخ التى طبعت مع تجارب الأمم تتضمن الجزء الثامن منه و يشمل السنوات من ٣٨٩ ـ ٣٩٣ هـ / ٩٩٨ ـ ١٠٠٢ م.

و يشكل عنوان كتاب مسكويه تجارب الأمم بحد ذاته مؤشراً على المنحى الذى اتخذه المؤلف فى تدوين التاريخ و الغرض منه، فالتاريخ ليس رواية وقائع فحسب بل هو اكتساب تجارب من وقائع حدثت فى الماضى للاستفادة منها فيما يستجد من وقائع تحدث فى الحاضر و المستقبل أو ما عبر عنه بنظرية «التاريخ يعيد نفسه»، و هو في نص عبارة مسكويه «تجربة لايزال يتكرر مثلها و يُنتظر حدوث شبهها و شكلها»، و يفسر ذلك بأنّ «أمور الدنيا متشابهة و أحوالها متناسبة». و هو يلخص في مقدمة كتابه فلسفة كتابة التاريخ، فيقول بلهجة الحكيم ـ و هو حكيم حقاً و قد عرف بهذا بين معاصريه ـ و الذي غربل مصادره جيداً، على أن نتذكر أنّه اشتغل فى فترة من عمره قيماً على خزانة كتب الوزير ابن العميد، و فى فترة أخرى قيماً على خزانة كتب عضدالدولة البويهى، و هما المكتبتان اللتان ضمتا نفائس الكتب التى جلبت إليهما من شتّى البقاع و فى شتّى الفنون. يقول مسكويه: «إنّى لمّا تصفحت أخبار الأمم و سير الملوك، و قرأت أخبار البلدان و كتب التواريخ، وجدت فيها ماتستفاد منه تجربة لاتزال تتكرر مثلها و يُنتظر حدوث شبهها و شكلها، كذكر مبادئ الدول و نشاء الممالك، و ذكر دخول الخلل فيها بعد ذلك، و تلافي من تلافاه و تداركه إلى أن عاد إلى أحسن حال، و إغفال من أغفله و اطرحه إلى أن تأدى إلى الاضمحلال و الزوال». و هو يرى في معرفة الحوادث الماضية ما يجعلها «إماماً يُقتدى به» أى قدوة تتخذ لمن يصادفه نفس الموقف فيقول: «و رأيت هذا الضرب من الأحداث إذا عُرف له مثال مما تقدم و تجربة لمن سلف، فاتخذ إماماً يقتدى به، حذر ممّا ابتلي به قوم و تمسك بما سعد به قوم ـ فإن أمور الدنيا متشابهة و أحوالها متناسبة ـ و صار جميع ما يحفظه الإنسان من هذا الضرب كأنّه تجارب له و قد دُفع إليها و احتنك بها، و كأنّه قد عاش ذلك الزمان كله، و باشر تلك الأحوال بنفسه، و استقبل أموره استقبال الخبر،

و عرفها قبل وقوعها، فجعلها نصب عينه و قبالة لحظه؛ فأعد لها أقرانها و قابلها بأشكالها. و شتّان بين من كان بهذه الصورة و بين من كان غراً غمراً لا يتبين الأمر إلا بعد وقوعه و لا يلاحظه إلا بعين الغريب منه، يحيره كل خطب و يستقبله و يدهشه كل أمر يتجدد له» (ص ۴۷ ـ ۴۹).

و ما دام مدار كتابة التاريخ هو الاستفادة من تجاربه فإن أكثر الناس استفادة منه يجب أن يكون الساسة و الوزراء وقادة الجيوش كما يرى مسكويه عندما يقول «جمعت هذا الكتاب وسميته تجارب الأمم، و أكثر الناس انتفاعاً به و أكبرهم حظاً منه، أوفرهم قسطاً من الدنيا كالوزراء و أصحاب الجيوش وسوّاس المدن و مدبري أمر العامة و الخاصة؛ ثم سائر طبقات الناس»، ويرى أنّ الاستفادة متحققة منه مهما كانت صغيرة: «و أقل الناس حظاً لا يخلو أن ينتفع به في سياسة المنزل و عشرة الصديق و مداخلة الغريب» (ص ۴۹).

و لما كان مسكويه قد اعتمد في كتابة الحوادث التي سبقته على كتابات المؤرخين المتقدمين الذين يقف الطبري على رأسهم، و كان كثير من تلك الكتابات مشوباً بالأساطير و قصص الأسمار التي يجري الحديث بها لاستجلاب النوم كما يقول، بادر إلى حذف تلك الأساطير و الخرافات، و عليه فقد أنقذ نفسه من أن يكون ناقلاً يدون كل ما وجده في الكتب التي سبقته، يقول بهذا الصدد: «وجدت هذا النمط من الأخبار مغموراً بالأخبار التي تجرى مجرى الأسمار و الخرافات التي لا فائدة فيها غير استجلاب النوم بها و الاستمتاع بأنس المستطرف منها، حتى ضاع بينها و تبدد في أثنائها، فبطل الانتفاع به»، و كان أول عمل قام به هو حذفه من تاريخه الحوادث التي وقعت قبل الطوفان معللاً ذلك بقوله: «لقلة الثقة بها و لأنّ ما نقل إلينا أيضاً لا يفيد شيئاً ممّا عزمنا على ذكره» (ص ۴۹).

لكن علينا التذكير بأنّ مسكويه لم يكن ناقلاً فحسب، فهناك الحوادث التي عاصرها بنفسه و كان في قلبها و عايش أبطالها، كتب في مطلع حوادث ۳۴۰ هـ / ۹۵۲ م يقول: «أكثر ما أحكيه بعد هذه السنة فهو عن مشاهدة و عيان أو خبر محصل يجرى عندى خبره مجرى ما عاينته، و ذلك أنّ مثل الأستاذ الرئيس أبى الفضل محمد بن الحسين بن العميد (رض) خبرنى عن هذه الواقعة و غيرها بما دبره و ما اتفق له فيها، فلم يكن إخباره لى دون مشاهدتى فى الثقة به و السكون إلى صدقه، و مثل أبى محمد المهلبي (رحمه اللّه) خبرنى بأكثر ما جرى فى أيامه و ذلك بطول الصحبة و كثرة المجالسة. و حدثنى كثير من المشايخ فى عصر هما بما يستفاد منه تجربة، و أنا أذكر جميع ما يحضرنى ذكره منه، و ما

شاهدته و جربته بنفسی فسأحکیه أیضاً» (۶/ ۱۷۰)

نطالع عناوین کتب التاریخ قبل مسکویه فنجد تاریخ الرسل و الملوك للطبري و نجد تواریخ کبار الأمم من مضی منهم و من غبر لحمزة الأصفهانی، و تاریخ الیعقوبی و مروج الذهب و معادن الجوهر للمسعودی، و جمیعها تحمل کلمة التاریخ حتی مروج الذهب الذي قال عنه مؤلفه: «کتابی هذا فی التاریخ و أخبار العالم...»، لکننا مع أبی علی مسکویه نطالع العنوان الأکثر التصاقاً بالتجربة الإنسانیة لیس علی المستوی الفردی بل علی مستوی الشعوب و الأمم: تجارب الأمم، علی أن نتذکر أنّ الرجل کان عالم أخلاق یهتم بتهذیب النفوس، و هل یوجد ما هو أدعی لتهذیب النفوس من تجارب الأمم؟

مع صدور هذه الطبعة الکاملة و المتقنة لهذا الکتاب التی بذل فیها محققها جهداً کبیراً، نستطیع القول إن مکتبتنا العربیة قد غنمت مصدراً غنیاً بالتجارب و الوقائع افتقدناه طویلاً من واجهات ورفوت محلات بیع الکتب و اقتصر وجوده علی زوایا کبریات المکتبات العامة نظراً لکون طبعته الصادرة قبل أکثر من ۷۰ عاماً أصبحت نادرة الوجود.

پژوهشگاه علوم انسانی و مطالعات فرهنگی
پرتال جامع علوم انسانی

پژوهشگاه علوم انسانی و مطالعات فرهنگی
پرتال جامع علوم انسانی